المخطوطات العربية في فلسطين

اعداد

خيرية قاسمية

الاستاذة بقسم التاريخ ـ كلية الاداب
جامعـــة دمشـــق

ان حركة الكتابة في جغرافية فلسطين تاريخها وحضارتها واقتصادها ومعالجة قضيتها في مختلف مراحلها وجوانبها ، لا تزالان تصـطدمان ببعـض العقبات . ابرزها عدم توفر المصادر الاولية ، التي يطلق عليها تجاوزا اصطلاح الوثائق ، بما فيهـا المراسلات الرسمية والقوانين والاتفاقيات والتقارير السرية والمذكرات الشخصية والاوراق الخاصة . وبعض هذه المواد مطبـوع وكثير منهـا لا يزال مخطوطا . وهي لم تظهر حتى الان الا في صفحات متناثرة ، كما انها تعاني من التشتت ، ويهددهـا الضياع والتلف والتسرب الى ايد غير امينة .

ومن المعروف انه يصعب فهم وتحليل ودراسة اي بلد بعيدا عن المعرفة العلمية المسندة بالوثائق الصحيحة . وتبدو العملية بالنسبة الى فلسطين اكثر حيوية ، اذ ان تاريخ بلـدنا ، وقضـيته ، تحوطهما ظروف تجعلهما عرضة للنقص والخطأ والتحيز ، كما تتناثر حولهما اتهامات كثيرة . ولا يخفى ان العدو الصهيوني يشن حملة ، الهدف من ورائها محو كل ما يتعلق بتاريخ العرب وحضارتهم في هذه البلاد ، ويسعى الى اثبات ما ليس له حق تاريخي فيه ، عن طريق التضليل ، وتشويه الحقائق التاريخية وتغييرها ، حتى يفرض الشخصيـة الصهيونية على كل الاراضي والاماكن التي احتلها . والوقائع كثيرة عن العدوان الاسرائيلي على التراث الثقافي العربي ، سواء في تشويه هـذا التـراث وطمسه ، وانتحاله ، او في ممارسة التنقيـب الاثري والبحث غير المشروع في المواقع الاثرية لنهبها وطمس معالمها وتشويه مدلولات آثارهـا ، او في الاستيلاء على مخطوطات ووثائق لها شهرة عالمية كمخطوطات البحر الميت ووثائق دير سانت كاترين، ومخطوطات المكتبات الخاصة داخل الاراضي المحتلة. والعدو يستخدم هذه الوثائق والمخطوطات بطريقة خاصة ليستفيد منها في دعم ادعاءاته .

وليست هذه الوقائع عـدوانا على القيم الثقافية العربية فحسب ، بل هي عدوان على قيم الحضارة الانسانية ، وخرق لاتفاقية لاهاي ١٩٥٤ بشأن حماية القيم الثقافية الانسانية . والاتفاقية لا تعتبر ان القيم الثقافية هي الآثار المعمـارية او الفنية او التاريخية فقط ، بل تعتبر المخطوطات والكتب والسجلات والمواد ذات القيمة الفنية او التاريخية والاثرية من القيم الثقافية التي يجب ان تحمى . لذا تبدو اهمية جمع وحفظ وحمايـة المخطوطات والوثائق الفلسطينية مسؤولية عربية لها قيمة قومية تتعدى اطار البحث الفلسطينـي الاقليمي الى الاطار العربي الشامل ، الى كونهـا تاكيدا لوجود الارض والشعب ، ومسجلا لاحداث القضية ، ومصدرا ثمينا للدراسة والبحث .

وعلى الرغم من الظروف الخاصة التي يجتازها شعبنا في المرحلة الراهنة ، ظروف الثورة والنضال التي نعطيها كل طاقاتنا ، فان منظمـة التحرير الفلسطينية تكرس جهودا فائقة في الميدان الثقافي عبر دائرة الشؤون التربوية والثقافية ، ومركـز الابحاث ، واجهزة اخرى . وهي جهود تكمل من عدة وجوه نضالنا السياسي والعسكري .

وانطلاقا من هذا الواقع ، مع الاخذ بعـين

الاعتبار الوضع الخاص الذي تنفرد به منظمة التحرير الفلسطينية ، قد تتعذر الاجابة على كل البنود التي تفضل معهد المخطوطات وطلب معلومات عنها ، ونكتفي بعرض الامور التالية :

١ ـ بعد عملية مسح وحصر لكل المجموعات الوثائقية المتعلقة بفلسطين تبين انها موزعة في الاماكن التالية :

آ ـ دور الارشيف التركية ، بما فيها ارشيف رئاسة الوزراء ووزارة الخارجية : ويحتوى هذا الارشيف التركي الرسمي على مجموعات ضخمة من الوثائق المتعلقة بالبلاد العربية خلال الفترة العثمانية . ولا يمكن استخراج وثائق فلسطين الا ضمن التقسيمات الادارية المتبعة خلال تلك الفترة وقد تولت الحكومة التركية عملية فهرسة هذه الوثائق ، ووضع جداول لها تسهل عند اللزوم عملية البحث . الا ان تصوير الوثائق يحتاج الى اذن مسبق واجراءات ادارية كثيرة .

ب ـ تتوفر في انكلترا اوسع واضخم مادة وثائقية رسمية حول فلسطين والحركة الصهيونية منذ منتصف القرن التاسع عشر . وتتركز هذه الوثائق في « دار المحفوظات العامة » في لندن ، بما فيها وثائق وزارتي الخارجية والمستعمرات ، وكذلك الاوراق الخاصة بالشخصيات البريطانية التي عملت في منطقة الشرق العربي . وهي موزعة في عدة اماكن (مركز دراسات الشرق الاوسط في سنت انتوني اوكسفورد ، تشاتام هاوس ، جامعة درهام) ، وغيرها . وعملية الاطلاع على الوثائق وتصويرها تخضع لتشريعات خاصة .

جـ ـ مكتبة الكونغرس في واشنطن (قسم الشرق الاوسط) . وتحوى مجموعات وثائقية ضخمة حول منطقة الشرق الاوسط العربي منذ الحرب العالمية الاولى . وتزداد اهميتها في فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها . والاطلاع والتصوير يحتاجان الى اذن مسبق .

د ـ مجموعات الصحف والدوريات الفلسطينية للفترة التي سبقت عام ١٩٤٨ ، آخذين بعين الاعتبار ان الصحف وحدها لا يمكن ان تشكل مصدرا موثوقا للتاريخ . الا انه لا يمكن الاستغناء عنها لاعطاء صورة عما كان يجرى في فلسطين في فترات تندر فيها الوثائق الاخرى . وهذه المجموعات موزعة بين مكتبات عامة ومكتبات خاصة داخل الاراضي المحتلة . وبعضها في دار الكتب الوطنية في القاهرة ، والمكتبة الوطنية في بيروت ، ومكتبة الجامعة الامريكية (بيروت) ، والمكتبة الظاهرية في دمشق .

هـ ـ تمكنت الجامعة العبرية في القدس من الاستيلاء على مجموعات وثائقية ضخمة ، كانت في المكتبات العامة والخاصة في الاراضي المحتلة . وقد قام معهد الدراسات الاسيوية والافريقية ، ومعهد ترومان للابحاث (القدس) بنشر قائمة ببليوغرافية بالكتب والمنشورات التي تضمها الجامعة . ولكن لم يعرف بعد محتوى المجموعات الخاصة من مذكرات واوراق ومخطوطات .

و ـ وثائق المحاكم الشرعية في الاراضي المحتلة . ولا تزال هذه في المحاكم نفسها . وهي شهود معاصرة تصور الحياة اليومية بمختلف جوانبها ، وتحدد التواريخ والاماكن .

ز ـ اوراق الهيئة العربية العليا في فلسطين . ومن المعروف ان الهيئة العربية العليا ، واللجنة العربية العليا ترتبطان بتطورات الحركة الوطنية في فلسطين خلال شطر كبير من فترة الانتداب . وقد شغل رئيس الهيئة (المرحوم الحاج امين الحسيني) مركزا مرموقا في هذه التطورات . وتشكل اوراقه الخاصة مادة ثمينة للدراسة والكشف عن خفايا الحركة الوطنية . ومعظم اوراق الهيئة العربية العليا موجود في مكاتبها في المنصورية (بيروت) ، كما ان مجموعة كبيرة كانت في القاهرة مع اوراق حكومة عموم فلسطين .

ح ـ مذكرات واوراق الشخصيات الفلسطينية التي لعبت دورا كبيرا في القضية خلال عقود من الزمان . ولدى هؤلاء كثير من المعلومات ، معظمها يعتمد على الذاكرة ، ويتأثر بالانطباعات الشخصية . وهي في طريقها الى الزوال بموت اصحابها . ونادرا ما سجل هؤلاء الاحداث في حينها ، او احتفظوا باوراقهم الشخصية ، كما يفعل اقرانهم في البلاد الاخرى . ورغم ذلك يوجد عند بعضهم اوراق مبعثرة ومذكرات . وهم يقيمون اليوم على امتداد الوطن العربي ، وبعضهم توفى ، وانتقلت اوراقه ووثائقه الى اهله . وعلى عاتق الاسر والافراد الذين يملكون هذه المذكرات والوثائق مسؤولية وطنية في العمل على اخراجها الى عالم النور .

٢ ـ لم يكن هناك ، حتى عام ١٩٦٥ ، معهد خاص ، او جهاز اداري تجمع فيه كافة الوثائق والمخطوطات المتعلقة بتاريخ شعب فلسطين وقضيته ، حتى يستفيد منها اكبر عدد من المختصين ، العرب او الاجانب الذين يفدون الى بلادنا للتعرف على

قضيتنا ودرسها درسا موضوعيا . ثم اقيم مركز الابحاث ، الذي هو مؤسسة للبحث والتوثيق انشأتها منظمة التحرير للقيام بمهام عديدة ، فهو الى جانب « اصدار الدراسات والابحاث ونشرها وتوزيعها باللغات المختلفة ، بهدف دراسة اوضاع الشعب الفلسطيني ، ونشر الوعي بين صفوفه ، ولتوضيح اهداف حركة المقاومة الفلسطينية ، ودحض الدعاية الصهيونية الاسرائيلية ، ثم الاسهام في تحويل المعرفة العلمية بالعدو الاسرائيلي وبالقضية الفلسطينية الى واقع عملي يساعد على متابعة النضال انطلاقا من خلفة واعية ، وتصور ناضج مدروس » ، الى جانب هذا كله جعلت اولى مهامه « جمع المعلومات والحقائق والوثائق والمنشورات عن القضية الفلسطينية وتبويبها وفهرستها واعدادها لتكون في خدمة الباحثين والكتاب على الصعيد الفلسطيني » .

٣ ـ وانطلاقا من هذه المهمة بدا المركز جهوده لجمع وحفظ الوثائق المتعلقة بفلسطين من جميع العصور ، اما اصولا وصورا على شكل مايكروفيلم اوفوتوستات . وهي جهود تتسع الى ابعد الحدود لتشمل كل ورقة تتصل بتاريخنا وتضيء جانبا من جوانبه :

أ ـ عمد المركز الى تصوير مجموعات منتقاة من الوثائق البريطانية . والعملية لا تزال مستمرة لتغطية الفترة ما بين (١٩١٦ ـ ١٩٤٦) .

ب ـ امكن الحصول ، بطرق خاصة ، على صور بعض الوثائق الفلسطينية الموجودة في الجامعة العبرية .

جـ ـ قام المركز بتصوير بعض مجموعات الصحف والدوريات الفلسطينية من دار الكتب الوطنية في القاهرة ، والمكتبة الظاهرية في دمشق على شكل ميكروفيلم ، ولا يزال يسعى الى تصوير بقية المجموعات خاصة .

هـ ـ نقل المركز مجموعة كبيرة من اوراق الهيئة العربية العليا ، مع معظم اوراق حكومة عموم فلسطين التي كانت في القاهرة . وهي تغطي فترة تمتد من (١٩٢٠ ـ ١٩٦٤) وتتناول موضوعات سياسية وعسكرية واقتصادية . كما قام بتصوير بعض الاوراق من مكاتب الهيئة في المنصورية (بيروت)، التي لا تزال تحتفظ بمجموعة ضخمة تحتاج الى تبويب وفهرسة ليسهل امر الوصول اليها والاستفادة منها .

و ـ وضع المركز خطة للحصول على المذكرات الشخصية وما يتصل بها من وثائق ، بالاتفاق مع اصحابها او ذويهم ، ومن ثم اعدادها للنشر ، اما بأجزائها الكاملة ، او اقسام منها . وقد عمل المركز، حتى الآن ، على نشر جزء من مذكرات عارف العارف وتتناول احداث الفترة التي تلت عدوان ١٩٦٧ . اما مذكراته الكاملة فالمفاوضات ما تزال جارية بين ذويه وجهات علمية كثيرة من اجل الحصول عليها ونشرها . كما نشر المركز قسما كبيرا من اوراق احد كبار الساسة الفلسطينيين (عوني عبد الهادي)، واحتفظ بسائر اوراقه في اشرطة مايكروفلم . كذلك نشر مذكرات احد الذين ساهموا بقسط كبير في احداث فلسطين العسكرية (فوزي القاوقجي) واحتفظ بسائر اوراقه (أصولا وصورا) . وقد أعد المركز مذكرات جمال الحسيني ، احد زعماء فلسطين السياسيين ، وهي تغطي جزءا من التطورات السياسية والاقتصادية للفترة من (١٩٢٠ـ١٩٣٠) وسيدفعها الى الى النشر قريبا . وقد تم الحصول على جزء من مذكرات احد رجال الفكر الفلسطيني (عبدالله مخلص) ، صاحب المؤلفات العديدة في ميداني الادب والتاريخ ، ومذكراته تلقي ضوءا على التطورات الداخلية ما بين (١٩٣٦ـ١٩٣٩) . كما وضعت بعض اوراق الشهيد (كمال ناصر) تحت تصرف احد الباحثين ، لتكون مرجعا اساسيا لاطروحة يقدمها لنيل درجة الماجستير .

ويحتفظ المركز ضمن مجموعة اوراق الهيئة العربية العليا ببعض الوثائق الخاصة بمفتي فلسطين الحاج امين الحسيني . لكن اوراقه الكاملة لم يكشف عنها بعد الا في الصفحات المتناثرة التي نشرتها مجلة الهيئة العربية « فلسطين » . ولا يزال المركز يجرى عددا من الاتصالات مع اصحاب العلاقة للحصول على عدد اخر من المذكرات والاوراق الخاصة .

ز ـ يحتفظ المركز باكبر مجموعة وثائقية تتعلق بحركة المقاومة الفلسطينية بعد انطلاقتها عام ١٩٦٥ . وهذه المجموعة تحوى ، الى جانب البلاغات العسكرية والبيانات السياسية التي تخص جميع فصائل المقاومة ، كل ما يصدر عنها من ادبيات في دوريات وكراسات وملفات .

٤ ـ بدأ المركز بتنفيذ هذه المهمة من خلال المكتبة ، ثم قسم الوثائق ، الذي ينمو باطراد ليصبح مستودعا للحقائق التاريخية ، ومصدرا علميا للدراسة والبحث . وقام بترتيب مجموعاته الوثائقية ترتيبا علميا ، وفهرستها وتبويبها حسب المواضيع والفترات التاريخية ، ليسهل للباحثين امر الوصول اليها والاستفادة منها . الا ان هذه الفهارس لم تنشر وتوزع بعد . ويمكن للباحثين

مراجعتها في المركز ، الذي وضع قواعد خاصة للاطلاع على مجموعاته الوثائقية ، بحيث لا يجوز نقلها ولا تستعمل الا داخل المركز . مع امكان اخذ صور من بعضها . كما انه احتفظ بمجموعة سرية لا يمكن الكشف عنها في المرحلة الراهنة لاسباب خاصة .

٥ ـ لم تجر ، حتى الان ، محاولة لتبادل المصورات مع بقية الدول العربية ومعهد المخطوطات ولكن لا بد للمركز ، في عملية اغنائه ، من ان يعمد الى التعاون مع جميع من لديه مجموعات وثائقية ومخطوطات ، اما بشرائها او استهدائها او طلب الاذن بتصويرها . وهو يأمل في قيام تعاون علمي وفني مع جهات اخرى داخل الوطن العربي وخارجه على اساس تبادل صور الوثائق .

٦ ـ يصطدم المشروع الذي باشر المركز بتنفيذه ببعض العقبات :

آ ـ ان الحصول على المجموعات الوثائقية وتصويرها ، او اتخاذ الاجراءات الفنية لحفظها وصيانتها ، والعمل على تصوير كل المقتنيات على اشرطة مايكروفيلم ، بقصد الاقتصاد في المكان من جهة ، وتجنيب الوثائق اخطار التدمير والتلف من جهة اخرى ، ثم اقامة اجهزة خاصة بالتصوير والقراءة ، ان هذا كله يحتاج بلا شك الى ميزانية ضخمة ، قد لا تساعد الحالة الراهنة على توفيرها .

ب ـ لا يستطيع المركز ان يتخذ التشريعات اللازمة ، او يمارس نوعا من نزع الملكية للوثائق والمخطوطات التي توجد لدى الافراد والهيئات ، والتي لها اهمية كبرى في التاريخ القومي ، ويخشى من اتلافها او تهريبها .

جـ ـ لا يغيب عن الذهن ان الاحتلال الاسرائيلي يعرقل العمل ، بما يمارسه من عبث بالتراث الثقافي ، ووضع اليد على المقتنيات الحضارية .

د ـ تبدو عملية تصوير الوثائق والاطلاع عليها ، في بعض البلدان الاجنبية ، امرا متعذرا على الباحث الفلسطيني ، بسبب التعقيدات السياسية التي تضعها تلك البلدان امام ابناء فلسطين .

٧ ـ ويجدر التنويه في هذا المجال الى ان هذا العمل سيدعم في المستقبل باخراج الموسوعة التي اتخذ المؤتمر العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في دورته الثالثة التي عقدت في (١٩-١-١٩٧٤) قرارا بالموافقة على اصدارها بالتعاون بين المنظمة للتربية والثقافة والعلوم ومنظمة التحرير الفلسطينية (دائرة الشؤون التربوية والثقافية) . وقد اقر المجلس التنفيذي في دورته الثانية عشرة مشروع الاتفاقية بين المنظمتين . وحددت اللجنة التحضيرية التي اجتمعت في القاهرة (٢١-٦-١٩٧٥) اهداف الموسوعة الفلسطينية بانها « موسوعة شاملة عن فلسطين العربية ، تقدم الحقائق الاساسية عن فلسطين ، ارضا وشعبا وقضية وحضارة ، في صورة معارف ومعلومات مركزة ، باسلوب علمي موثق ، مرتبة ترتيبا هجائيا لمواد موضوعية تكون مرجعا لجمهرة المثقفين ، ومصدرا للباحثين ، يستفيدون من موادها ، ومن القوائم الببليوغرافية التي تذيل بها كل مادة » .

ان تحقيق هذا الهدف لن يتم الا بالرجوع الى المصادر الاولية الموثوقة التي توفرها الوثائق والمخطوطات ، وبها يتم الكشف عن الوقائع الموضوعية وتجنب الاحكام الخاطئة ، ودحض المزاعم الصهيونية . والاهم من ذلك كله التعريف بفلسطين ، وبالقضية الفلسطينية بمنطلقاتها العربية .

٨ ـ تتقدم دائرة الشؤون التربوية والثقافية في منظمة التحرير الفلسطينية الى معهد المخطوطات العربية ببعض المقترحات ، آملة ان تؤخذ بعين الاعتبار ، مع مراعاة الظرف الخاص الذي يمر به شعبنا في المرحلة الراهنة :

آ ـ ان يضع معهد المخطوطات ، ضمن برامجه لعام ٧٦-١٩٧٧ ، مهمة تصوير الوثائق والمخطوطات الفلسطينية المنتشرة على امتداد الوطن العربي وخارجه . وان يتولى تزويد دائرة الشؤون التربوية والثقافية في منظمة التحرير الفلسطينية بنسخة من هذه الصور لحفظها في القسم الخاص بها في مركز الابحاث (بيروت) .

ب ـ ان يعمل معهد المخطوطات ، بالوسائل التي يراها مناسبة وبالاتفاق مع سائر الدول العربية ، بتسهيل مهمات الباحثين الفلسطينيين للاطلاع وتصوير المجموعات الوثائقية المتعلقة بفلسطين في بعض البلدان التي تضع عراقيل سياسية امام هؤلاء الباحثين .